نهاية المجد الانسانى

لدانيل ديفوا Daniel Defoé

(١٦٦١ — ١٧٣١)

رسالة كتبها لوهدى الصحف بمناسبة موت الدوق مارلبرو

سيدى :

لقد أكببت أخيراً على درس التاريخ ، وطالعت حياة عظماء القرون الماضية كالاسكندر الأكبر ويوليوس قيصر وأوغسطس العظيم ، وكثيرين غير هؤلاء وهؤلاء ممن تواردوا بعدهم حتى لويس الرابع عشر الكبير ، بل وحتى أعظمهم وأكبرهم « جون دوق مارلبرو.» ! ! ، ولقد مررت فى طريق بتيمورلنك حصاد الرؤوس ، وبتمور نبيجوس المصرى ، وبسليمان الكبير ، ثم بغير هؤلاء من سلاطين آل عثمان ، فاذا قد كتب عنهم جميعاً الواحد تلو الآخر بعد الآثار العظيمة التى خلفوها : « ثم مات » ! ! ! ؛ جميعاً أموات ! ؛ أموات ! ؛ أموات ! ؛ ؛ و «الموت» هو نهاية كل منهم ! ! فالبعض يرقد فى مهد الشرف ! والبعض على سرير الخضوع الذليل ! هـذا قد مات شجاعاً فى ساحة الشرف ! وذاك قد تردى فى هوة المجد أثناء عاصفة الهجوم ! البعض هنا والبعض هنـاك ! تختلط عظام الشجاع الصنديد منهم بعظام الجبان الرعديد ! وبقايا البطل الجرىء ببقايا النكرة الدنىء ! يرقدون هناك فى أكفان النسيان تحت أنقاض الثرى ؛ لا يتميز واحد من الآخر ولا يباينون التراب فى شىء ! »

« ترقد هذه الساعة الدقاقة الفاخرة مختلطة بالأقذار ؛ وهى التى كانت « عظيمة » فظنت نفسهـا عارفة مقتـدرة ! » كم آلاف من الأبطال يرقدون فى هذا العالم أكواماً متناثرة ؟ كم يجرف الريفيون عظامهم بمحاريثهم وكم يسحقها العمال بفؤوسهم ؟ بل لكم تحول الأرض أنبـل وأسمى أعضائهم إلى ما يستعمل فى أحط المنافع ! لكم مزجنا رماد الأبطال بطلاء منازلنا ؟ ؛ ولكم خلطنا رماد قائد رومانى بملاط حظيرة للخنازير ! أين رفات (قيصر) ؟ أين بقايا (بومبى) وانقاض (سـيبيو) و (هنيبال) ؟ ؟ كلهم قد تلاشوا ! ! اندثر رمادهم ولم يعد مكانهم يعرفهم ! لست تراهم إلا فى الكتب الباقية لشعرائهم ومؤرخيهم ؛ والرسائل الكثيرة لمداهنيهم ومتملقيهم الذين صوروا لنا الأشخاص لا كما كانوا حقاً ! بل كما كان يحلو لهم أن يصوروهم ! ! ! . . .

* * *

وما يقع لأعظم الناس يقع لأطولهم عمراً ! فقوم نوح انتهوا جميعاً بشىء واحد ؛ عاش منهم (متوشالح) تسعمائة سنة وتسعا وستين ! وأعقب أبناء كثيرين وبنات كثيرات ! ثم ماذا كان ؟ كان أن مات . . ! « الحياة حلم ، والموت نهر طام يجرفنا »

* * *

نحتفل الآن بجنازة مارلبرو « العظيم » ! ! فكل انتصاراته ، وكل مفاخره ، وكل خططه الحربية التى دبرها ، وكل فتوحاته المتسلسلة المطردة ، كل ذلك الذى يخصونه به كما لو كان وحده قد حارب وانتصر ، وفاز وكسب ، دون أن يعده الكثيرون بأرواحهم ودمائهم ! كله قد انتهى حيث ينتهى آخرون ! بل حيث ينتهى الناس جميعاً ! إنه مات ! ! فلا ثروته الضخمة ، ولا أسلابه من أعدائه ، ولا سخاء حبيبته البارة وكرمها ، ولا الكنوز المتراكمة فى الحرب وفى السلم ، ولا كل هاته الكتلة العظيمة من الذهب التى لا أعنى بتعيين ضخامتها كما قد يعنى البعض ! ! شىء من ذلك لم يستطع أن يهبه الحياة ؛ ولا أن يطيل له أمدها لحظة ؛ لقد انتهى وكفى . . . !

لا ، بل يقول البعض إن الكنز العظيم الذى امتلكه فى هذا العالم ذو خاصية غريبة عالقة به كانت تكون خير منغصة لصاحبه لو اعتنى بالتفكير فيها قليلاً ! وهى أنه لا يستطيع أن يأخذ شيئاً منه الى قبره ... !!!

لم يبق لنا شىء من ذلك « العظيم » نتحدث عنه غير تاريخه وتمثاله ؛ لقد عُدَّ الآن فى الماضيات ، وأصبحت صور جنازته ومعاركه جديرة بأن تتزين بها منازلنا كسائر القطع الفنية التى

تعادلها زهواً وبهاء ، وتساويها فى النظر اليها بسرور وارتياح !!!

* * *

هكذا نهاية المجد الانسانى ! وقليلاً ما تستطيع الدنيا القيام به لأعظم من يلجونها ! بل ولأعظم قدر يصل اليه هؤلاء الرجال . . ! !

فما وظيفة الحياة إذاً ؟ وما أثر العظماء الذين يمرون على مسرح الدنيا فى حلل النصر كهؤلاء الذين ندعوهم « أبطالاً » ؟ ؟ أهو أن يكبروا وينفخوا فى بوق الشهرة ويشغلوا صفحات كثيرة من التاريخ ؟ ؟ والأسفاه ! ! ليس هذا بأكثر من وضع قصة يقرأها الخلف فيما بعد ويصورها خرافة ورواية ! ! أم هو أن يقدموا للشعراء موضوعا يعيشون به فى أشعارهم الخالدة كما يدعون ؟ ؟ وذاك أيضاً سيؤول بهم إلى قصة شعرية يتلوها العجائز لأسكات الأطفال ، أو لجمع مساعدة للفقراء والمساكين على قارعة الطريق . . !

أم أن أثرهم هو أن يضيفوا الفضيلة والتقوى لمجدهم ؛ وهما العنصران اللذان يأخذان بهم إلى النعيم ويجعلانهم حقاً خالدين ؟ ؟ وما المجد من غير فضيلة ؟ ؟

ليس العظيم من غير تقوى بأكثر من دابة ضخمة من غير نفس !

ثم ما الشرف بغير قدر واستحقاق ؟ ؟

وماذا يمكن أن يدعى قدراً حقيقياً غير ما يجعل الشخص تقياً كما هو عظيم ؟ ؟

إنا إذا كنا نؤمن بحالة مستقبلة للحياة ، بمكان يكافأ فيه الفضلاء ، ويعاقب بين جدرانه السفلة ، فكم من الرؤوس المتوجة سيلبس تاج السعادة والخلد ؟ ؟

لا يحسدن أحد « العظماء وذوى المجد » كما نسميهم ! !

فانا إذا استطعنا الآن أن نراهم وجدنا أكثرهم يستحق الرثاء لا التهنئة ! ! ؟

هذه الخطرات القليلة أبعثها اليك ياسيدى لتهيئ عقول قرائك قبل أن يذهبوا لمشاهدة الجناز الفخم للطيب الذكر « دوق مارلبرو » . . . . ؟

ترجمة محمد حسين ظاظا

الأدب بين الخاصة والعامة

لامرتين ورينه جارد

للسيد اسكندر كرباج

فى عام ١٨٤٦ قصد الشاعر الفرنسى لامرتين إلى مرسيليا لقضاء بضعة أسابيع فى أحد أحيائها الهادئة ، بعيداً عن متاعب السياسة وضوضائها ، وكان لامرتين وقتئذ فى أوج مجده الأدبى وعظمته السياسية ؛ فاحتفت به أندية العلم والاجتماع فى تلك المدينة البحرية ، وأكرمه الأدباء والشعراء ، ونظموا فيه القصائد البليغة

وفى ذات يوم ذهب لامرتين وزوجه للنزهة على ساحل البحر ، فلما عاد مساء قيل له إن فى الرواق المطل على الحديقة امرأة وضيعة الهيئة بسيطة الهندام تنتظر رجوعه منذ الصباح . فتوجه لامرتين إلى الرواق المذكور ليرى تلك المرأة الغريبة ويقف على حقيقة أمرها ؛ وبعد أن يشاهدها ويحدثها ويصف ملامحها ونظراتها واشاراتها بتلك الرقة الساحرة وذاك البيان الخلاب الذى اشتهر به مؤلف رواية غرازيلا ورفائيل يسألها عن الغرض من قدومها لزيارته ، فتجيبه أنها خياطة فى اكس ، وقد قرأت رواياته ومنظوماته ، وأعجبت بجمال تعابيره ورقة شعوره وسمو خياله ، فلما اطلعت فى الصحف على خبر قدومه إلى مرسيليا واحتفاء دوائرها الأدبية به تولدت فى نفسها رغبة التعرف به والتحدث اليه ، وانها على الرغم من فقرها وخمولها تجرأت على ترك عملها والقدوم سرا الى مرسيليا تحقيقا لرغبتها

فيتودد اليها لامرتين ويلاطفها ويقول لها انه يشك فى أنها تركت عملها وتحملت مشاق السفر يومين كاملين ، وقضت معظم النهار فى انتظار رجوعه من نزهته لكى تراه وتحدثه وتتعرف اليه فقط ؛ بل يجب أن يكون هنالك سبب آخر لقدومها لا تريد ذكره ، أو إنها لا تجرؤ على التصريح به ، ولذلك فهو يسألها أن تخاطبه بحرية وتبوح له بما فى قلبها من غير تكلف

فتفقد هى إذ ذاك شيئاً من خجلها واضطرابها ، وتخبره أن فى اكس أسرة كريمة تعرف شدة ميلها إلى المطالعة وعجزها عن شراء الكتب فتعيرها ما تقتنيه منها ، فاستطاعت بذلك أن تطالع